الوكر

قصة عبد الرحمن الربيعي

هي امرأة فاتنة وانا مهدم جائع ، شعرها مكور كتاج سومري وانا واحد من اتباع قصرها الملكي العامر ، ادور امامها بالكؤوس والالحان ، سمعا وطاعة يا مولاتي ، يا فاتنة قواد مملكتنا الترامية الاطراف ، تيجاننا وعروشنا بين يديك ، قلوبنا ورؤوسنا قربان لعينيك ، رحمة بقتلانا يا اميرتنا الحبيبة .

هي امرأة فاتنة تطل على عالمي خلال عينين قد غرقتا في ظلال جفنين ناعسين تتوسطان قمرا طريا ، تهلان على ظلامي فتتركانني ضائعا وحزينا حكاياتي تورث الصداع واعيش على وهم يائس مشتهيا ازاحة الخصلة المنطرحة على جبينها الصغير ليخلو امامي الميدان .

كانت تتكيء على جدار املس رصاصي وترمي نظراتها الاسرة في زاوية من قاعة عرض الصور الكبيرة ، تحيطها الصور والالوان فتبدو الحي الوحيد بينها . اما دماء الرسامين واعصابهم المعلقة على الجدران فكانت تبدو قرابين رخيصة امام اله صلف مغرور .

بقيت انقر باصابعي على الجدار ولي قدمان كقدمي تمثال ، اقتنص هذه اللحظات العابرة من عمر يتآكل ويبلى ووجهها الثمين يشدني كقيد قاس ، هيكلي الطويل معلق على صليب عينيها ، ادفع ببسمة ثقيلة الى شفتي المزمومتين وهي ببشرتها اللبنية تهملني كل الاهمال .

هي امرأة فاتنة جدا ، دارت بعينيها واسقطتهما على التافه من الاشياء . اما عندي فكانت تحولهما مسرعة ، وبعد برهة من الطوفان المجهول اوقفتهما واستقرتا على لوحة مقابلة متناسية انساني العميق ، انساني الذي يعطي خلاصة لكل تعب رجال مدينتنا المغمورة وكل ليالي الخمرة والتسكع والثرثرة واحلام المجد والنساء والهتاف ، انساني الذي ينتحب خجلا عندما يجد كفه فارغة كقلب خلي ويضحك بعد ذلك بخيبة وحرقة ويصفق بيديه صارخا : الخمرة هي مجدي الضائع .

دنوت منها ، زحزحت التمثال ، وسألتها بجهد عن اسم واحدة من اللوحات فأجابت بكبرياء جبل : اسمها مكتوب تحتها .

اللعنة عليها وعلى والديها ، ان هذا صفعة وليس جوابا !

وانصرفت .

هذه البرجوازية اللعينة تهملني هكذا ! انا جنكيز خان الفاتح المظلم، انا البدوي في طباعي لم تؤثر في اخلاق المدينة ولا طلاء العصر ، بدائية الصحراء في عنادي وصراحتي وكأنني ترجلت عن جملي قبل لحظات ، ما بالي وقد تسمرت امامها باهتا ساذجا كقروي يدخل المدينة اول مرة، يجثم فوق فمه المتهدل سرب من الذباب الكسول ؟!

مضيت ..

طرقات حذائي في رأسي وفي طريقي بعض الصبية يمارسون لعبة بطولة ومغامرة تعلموها من افلام السينما الامريكية ، وكان نادي الموظفين فاتحا ابوابه لاستقبالي وامثالي ، ودخلته ، فانا موظف حكومي ولي مرتب شهري واضبارة مليئة بالعقوبات ، انه تاريخ غير مشرف كما في العرف الذي اتفق عليه اهل مدينتنا ، ووجدت النادي غاصا بموائد السكارى والمقامرين . اما رأسي فكان غاصا بذلك الوجه المترف ، الوجه الذي لم تلفحه شمس ولم يعتصره الم ، بتلك العينين المشرقتين ، العينان الواسعتان كالدنيا هذه في نظر الاغبياء ، وكرعت المزيد من العرق الابيض الرخيص ، فانا مدمن كؤوس وليل ونساء وحكايات حزينة ، ثم نهضت احمل رأسا من الرصاص وغادرت النادي وعدت اليها .

الصبية الذين كانوا يمارسون لعبة بطولة هتفوا ورائي : سكران، سكران ، الكثير من رواد المعرض تهامسوا عند دخولي : سكران ، سكران، انها كلمات لم تعد تثير في نفسي شيئا ، فلقد سمعتها مرارا حتى فقدت وقعها .

واقتربت منها وهي في مكانها لا تتزحزح كنخلة من نخيل مدينتنا الكثير ، وعندما رآتني تظاهرت بتحسين وضع ساعتها ، انني جبان امام النساء ، هذه حقيقة لا انكرها ، ولكن بقدح واحد ارجع كل نساء الارض الى مكانهن الحقيقي هناك تحت اقدام الرجال ، هؤلاء العمالقة اصحاب الجباه الصلبة المشحونة بالدم والحرارة ، العمالقة الذين فتحوا مدنا واسقطوا عروشا وممالك .

قلت لها :

ـ انت جميلة كالبدر .

هذه عبارة حفظتها من الكتب لكثرة تكرارها ، فاشاحت عني بوجهها وتابعت :

ـ لم اشاهد من هي اروع منك .

عند هذا داهمتني بعينيها فارتجفت ، خفت غضبها .

هي امرأة فاتنة وانا اسيرها ، قلت لنفسي : لا املك ما اخسره ، هذه الكلمات ادعوها حكمة العمر وهي سبب اندفاعي في امور قد تبدو لبعضهم مرعبة ومخيفة ، فجمعت اوصالي وتابعت :

ـ لك عينان تساويان هذه المدينة كلها .

ـ لم اعرفك من قبل ! الا تحمل قليلا من الحياء ؟!

انه صوتها جاءني بعد طول انتظار كلحن من الالحان التي اهلتها روعتها لان تخلد على مر الازمان ، واحسست بانني اوغل في ضياعي وحزني ، وانقذني رفيف قبضة الشعر على جبينها الوردي ، وتنفست عميقا وقلت :

ـ تكلمي المزيد ، دعيني اسمعك فلصوتك نغمة ربيعية تضيع امام روعتها كل موسيقى بيتهوفن وشوبرت .

وضجرت مني ولكني لم اضجر .

ـ لا تتهربي مني ، وجهك هذا اعرفه ، حملته معي سنين طويلة ، وكان سلواي في ليالي الوحشة والجفاف .

وابتسمت من كلماتي ، واثارت الدنيا برأسي ، طردت ذلك الطائر الاسود من تجويفه ، وردت علي :

ـ لم اشاهد مجنونا مثلك !

ـ لا املك ما اخسره .

ـ سانادي الاخرين ليطردوك .

ـ انا على استعداد لمصارعة مئة من هؤلاء الرجال العجاف .

وضحكت ، ثم قالت :

ـ لم تشرب كثيرا ؟!

ـ انني جريح .

ـ قل ما مقصدك ؟

ـ لا اقصد شيئا معينا ، دعيني بجانبك بعض الوقت ، لدي طرائف كثيرة ساسمعك البعض منها .

ـ انني مشغولة بهذا المعرض !

ـ دعيني ابحر في عينيك ، اقذف بشباكي واتوسد مقود سفينتي

الحبيبة وانعم بالصحو والشمس .

ـ ربما تفرق ...

ـ انني اجيد العوم .

ـ لقد حيرتني !

ـ احب عينيك .

ـ ارجوك ان تتركني بسلام ..

ـ افهميني قليلا ، انني رسام مثل هؤلاء الذين تقفين ملكة على اعمالهم الان ، عالي خطوط والوان ، مقفل لا يهمني الاخرون ، لا التزم قضية ولا احمل رسالة ، اسكر ليل نهار ، ترعبني الايام القادمة واسخر مما مضى بي من ايام ، ابعثر حكاياتي في الدروب والحانات ، عشت حكايات حب خائبة وبكيت ليالي طويلة شوقا لحديث امرأة ، واليوم رسوت امامك بكل حرماني .

ـ وماذا يهمني من امرك ؟!

ـ اريد ان ارسمك هذا بعض ما اريده ، سأخلدك بفرشاة مهملة لم تمر على غير وجوه الشحاذين والسكارى ، ولن يخلدك مثلها كل اموال ابيك .

ـ الخلود ! يا للسخف ! لازلت تعيش هذه التبريرات المضحكة !

بماذا يفيدني خلودك هذا ؟ انني اعيش حياة واحدة ، وباموال ابي ازور لبنان الساحر كل عام واشتري ما اشتهيه لكني لا استطيع ان اشتري حذاء رخيصا بكل رسومك .

ـ انت مثل الاخرين ، لقد اوقعوك في عالمهم ، هذه مقاييسهم التافهة لازالوا يتوارثون السخف والبلادة تماما كما يتوارثون المال والعقار، رسومي الرائعة ... دمي .. اعضائي .. صرخة الادانة لحياة متحجرة ذبيحة .. رسومي عالمي .. صيحتي .. خلاصي وسط الزيف .

ـ لا تسمعني المزيد من فلسفتك ، انتم مجانين ، كل من يضع لونا على ورقة يصرخ هذه الصرخات المغلوبة ، لن تنتظر ان تكون مثل ـ فان كوخ ـ مثلا اتعرف كيف عاش ؟ ان حياة خدم بيتنا افضل من حياته ، يجب ان تكون واقعيا اكثر .

ـ انت لا تعيشين .

ـ وهل انت الذي تعيش ؟! على كل حال تعال غدا لبيتنا ، سانتظرك هناك حتى ترسمني ، هيا اكتب عنواني .

ـ انني اعرفه .. وداعا .

ـ مع السلامة .

... وفي جيبي المتهدل دسست يدا مرتجفة وانصرفت .

تعال غدا لبيتنا ! الصعلوكة ابنة الصعلوك لا زالت تأمر ! من تتصورني ؟! ساذلها يوما .. احبها بالم جارح ..

... وفي اليوم التالي كنت اطرق بابها .

ـ انا محمود الرسام ، جئت ارسم صورة لسلمى ، لقد طلبت هي ذلك مني البارحة .

ـ تفضل .

ثم قادتني الخادمة واصابعي تقبض على حقيبتي المكدسة بانابيب الزيت وتفوح مني رائحة التربنتين وزيت الكتان هذه الرائحة التي اصبحت عطري المألوف ، واستقبلني في بيتهم فصل ربيعي غير ذلك المقرف الذي خلفته ورائي في الشارع .

ولم يطل بي الوقت عندما جاءتني بفستانها الوردي ، امرأة فاتنة جدا جدا ، جاءني الاله الرحيم بغيومه الممطرة وسخائه .

ـ صباح الخير يا سلمى .

ـ صباح الورد يا ....

ـ محمود .

ـ العفو ايها الجريء ، لكن كيف عرفت اسمي انت ؟!

ـ انني اعرفه .

ثم ضحكت .

هي رائعة ناعمة عاشت في دلال وامتلأ بين جدران هذا البيت الفخم ، لولاها لكان قفرا مثل ايامي ، وسألتني بترفع ارستقراطي :

ـ اتريد ان تبدأ الان ؟ لقد اخبرت بابا عنك البارحة ، قلت له بان رساما اعجب بوجهي واراد ان يرسمني .

ـ ساودع في صورتك كل تجاربي المدخرة وكل ما في فرشاتي من ثورة وارادة .

ـ انت منفعل دوما يا محمود ! لا داعي لكل هذا ، حاول ان تكون اعتياديا ، الامور لا تستحق كل هذه المعاناة .

ـ هذا انا يا سلمى .

ـ سانناقشك في هذا الموضوع يوما، اما الان فساعرفك على بابا اولا.

وجاء معها بعد لحظات ، كان اصلع ويحمد شاربيه فيبدو صالحا لصورة كاريكاتورية عنوانها الحصاد .

ـ اهلا بالفنان ، اريدك ان ترسمها جيدا ، تذكر بانها عزيزتي ووحيدتي ولا املك في الدنيا غيرها ، حاول ان ترسمها باعتناء وسادفع لك اي ثمن تريده .

وضحكت ، قلت له :

ـ لا اريد ثمنا عن عملي ، انا على استعداد لدفع مرتبي الشهري مقابل جلوسها امامي ، اذا ما اعجبت بوجه ايها العم فاني ارسمه باي ثمن كان .

ـ حسنا ، اعمل ، سانصرف عنكما الان .

وجلست قبالتي ، جلست ملهمتي بذلك الوجه الذي اشقاني طويلا منتظرة وضع ملامحها على قطعة قماش قفراء ستثب حياة بعد لحظات ، وظلت ملامحها اسيرة فني ، ملقاة تحت حمايتي ، انا الذي عاش في اظلم بؤس ، وابتسمت لي واحسست بطعم ابتسامتها ينفذ الى اعماقي الخاوية ، لمن هذه المخلوقة الجميلة ؟ من يصهرها بين ذراعيه كل ليلة ؟ من يلتقط شفتيها ورقتي الورد ؟ من .... ؟ اما عني فهي بعيدة جدا ، ببيتها وحياتها ، بعيدة بشعرها الكستنائي الهائم كقصيدة حب حزينة ، وسألتها :

ـ هل كنت نائمة ؟

ـ نعم ، كيف عرفت ؟

ـ انه شعرك .

ـ سأصففه الان .

ـ لا ، اتركيه هكذا ففيه همجية اسطورية .

واخرجت محتويات حقيبتي .

ـ سارسمك على هذا الحجم .

ـ اليس كبيرا ؟

ـ اريد ميدانا اوسع للصراع مع وجهك .

وابتسمت فاتنتي من جديد ، ثم دفعت بيدها الصغيرة لتسند رأسها اما في الاخرى فكانت تقبض على خصلة تحاول الهزيمة .

ـ هذا وضع مناسب ، سارسمك عليه ، حسنا لا تتحركي ، حدقي في تلك الزاوية ، نعم ، هناك ، تجاه صورة والدك .

وفعلت ما اريده واخذت امزج الواني ، وعندما رفعت بصري لاضع اول لون على القماش ذهلت من هذا الصفاء العجيب في وجهها وعجزت عن ايجاد وصف مناسب له ، ان الواني كالحة وليس بينها هذا اللون الغريب ، هذا اللون الحي الحبيب لا يمكنني ان استخرجه من بين كومة من الانابيب المحشوة بعجينة ميتة ، واجتاح عيني الذاهلتين ضباب كثيف، انني عاجز عن التقاط هذا اللون ، والقيت بالفرشاة .

ـ الا ترسم ؟

وبقيت في خشوعي وتابعت السؤال :

ـ ما بالك ؟ هل انت مريض ؟

ـ وجهك ، وجهك يا سلمى .

ـ ما به ؟

ـ يحيرني .

ـ هل انت مجنون يا محمود ؟!

ـ نعم مجنون بهذه الترتيلة الرائعة .

ـ انت تحيرني دوما !

وأفقت من صمتي .

ـ احبك دوما ؟! وهل تعرفينني قبل هذا ؟!

ـ كيف لا اعرفك ؟

ـ حدثيني هل شعرت بوجودي يوما ؟

ـ لقد كنت اراقبك دوما بدافع الفضول وانت تخطر في دربنـــا وعيناك شاخصتان في الفيوم وهذا الصمت على وجهك ولم اسمعك يومـا ما تكلم واحدا من الناس حتى تصورت صمتك بلادة مزمنة ، لكني وجدتك من النوع الذي لا يمكن للانسان ان يمر به مرورا عابرا فكانت بدايتـــي معك هي الرغبة في معرفة سرك وعرفت عنك بعد هذا كل الذي اريـــده حتى حكايتك مع منى .

ـ لقد انتهت هذه الحكاية في وقتها .

ـ اعرف بانها باعتك .

ـ لا تذكرني بهذه البغي المتاجرة بقلبها وجسدها .

ـ حسنا ، على كل حال ان صفحاتك مع النساء سوداء واية واحدة لا تقرب عالمك .. اذكر بانني ضحكت منك ذات ليلة فبينما كنت اتامـل ظلام الشارع ولمحتك تترنح وتهذي ، انت نسيج خاص يا محمود لم يشترك فيه الاخرون .

ـ اواه يا سلمى ، انني املك نفسي ، هذا كل شيء ..

ـ اتعرف بانني عاملتك بجفاء في اول حديث لي معك ، عرفت بـان هذا الحديث سيكون بداية مأساة طويلة ولكنك كلمتني رغما عنـــي ولا ادري كيف تم كل هذا ! عندما كنت المح وجهك الغائم كنت اقول لنفسي: سيكون لي شأن مع هذا الوجه ، انني اشتهيك بعمق ، اريدك يا محمود ، لا تلو عنقك هكذا ، فانا بكامل عقلي ، اقترب ، انتزعني من هـذا التردد الطويل ، احملني الى عالمك وجنونك ، دع الحمامة المذعورة تحتمي .

هي امرأة فاتنة ، انا مهدم جائع ، وذهلت ، هـــل اصدق هـــذه البرجوازية اللعينة ؟! لكني لا املك ما اخسره ، ضائع وحزين أمانني من قبل حب امرأة رخيصة ، وسلمى هي خلاصي مـــن تلـــك الصفعات ، واحنويتها بذراعي الثقيلتين واستسلمت لي ، انفاسها تتلاحق ، انفاسي تتلاحق ، نعدو وكأننا في ذروة سباق ، سباق هدفه مجهول للمتبارين ، البحار المغترب يجد الشاطىء والامان وقناني الخمرة المعتقة ، وداعـــا يا ليالي الحرقة والاختناق ، وداعا يا جوعي المزمن ، شفتاها ورقتا الورد ترتجفان من حمى انفاسي ، حنوت عليهما ، اخذتهما الـــي ، امتصصت رحيقهما ، يا له من رحيق سحري من نور القمر ، وانطرحت بجانبهـا ، رأسها على صدري وهي كحيوان اليف دافىء ، ترقد بريئة بجانبي ، تقبل جانب عنقي وتطبقني بقوة ، انها لي ، حبيبتي الرائعة ، اواه يا سلمـى الحبيبة ها هنا مثواك الاول والاخير .

ـ سوف يرانا ابوك .

ـ لا تهتم ، لقد خرج ، سمعت وقع خطواته وهو يغادر البيت ، قل لي هل تواصل المجيء الي ؟

ـ ان عجزت قدماي ساتيك على يدي كما يقول المغني .

وضحكنا معا ، وشعرت بارتجاج صدرها البكر من انطلاقة الضحكة وشعرت بنبض قلبها البطي ، كانت قريبة مني كقلبي .

ـ وان انتهت الصورة ؟

ـ سنجد عذرا اخر .

آه ايتها العزيزة ! لقد ذقت شفاها كثيرة من قبل ، لكني لم اذق مثيلا لشفتيك .

واستسلمت لهذا الميلاد الجديد ، اعطيتها رأسي ثم اطلقت كل مـا ادخرته من صلاة ..

* * *

... ومنذ ذلك اليوم بدأت اتنفس بسهولة ولذة وقـــد اشرقت الواني الكالحة ..

انني حـي .

العراق (الناصرية) عبد الرحمن الربيعي

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السام

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت